

٣٩ - امتياز

إذا^(١) شكّا المصريون من امتيازات الأجانب ، وطلبوا إلغائها ، وذلك شيء لا ينازعهم فيه أحد ، ولا ينكره عليهم أحد ، فمن الحق عليهم لأنفسهم ألا يمتاز بعضهم من بعض ، وألا يتفوق فى الأعمال العامة بعضهم على بعض ، وألا ينزل بينهم من التمايز إلا هذا الذى تقضى به الطبيعة ، ولا يجد الناس إلى إلغائه سيلا .

وكل شيء فى حياتنا الآن يدل على أننا لا نسعى إلى المساواة ولا إلى إلغاء الفروق ، وإنما نسعى مسرعين متعمدين إلى نظام الطبقات ، وإلى نظام الطبقات العنيف الذى يثير السخط ويملأ الصدور حرجا ، ويزهد الناس فى الحق والعدل ، ويؤنس الإنسان من إنصاف القانون .

الأصل أن الموظفين يجب أن يكونوا سواء أمام الحكومة فى الفوز بالترقيات والعلاوات لا يستثنى منهم إلا الذى تظهر كفايته النادرة فتفرض استثناءه فرضا ، وفى هذا الاستثناء نفسه تشجيع لغيره من الموظفين على أن يجتدوا ويكدوا ويصلحوا من أنفسهم وأعمالهم ، لعلهم أن يبلغوا ما يجعلهم خليقين بالاستثناء . ولكن الحكومة تستثنى كبار الموظفين وتؤثرهم دون غيرهم بالمودة والبر . وتستثنى من كبار الموظفين هؤلاء أقربهم إلى الوزارة ، وأقدرهم على تنفيذ سياستها ، فتنشئ بذلك فروقا بين الموظفين ، ليس مصدرها الكفاية الخاصة ، وليس مصدرها حسن البلاء فى خدمة المنفعة العامة . والحكومة تؤثر بين صغار الموظفين جماعة من الأصفياء والأولياء ، ومن المحسوبين والمقربين فتختصهم بالعلاوات والترقيات ، دون زملائهم الآخرين وتختصهم بألوان أخرى من المنافع والمزايا تميزهم تمييزا ظاهرا جليا . وهى بهذا تشعر عامة الموظفين بأن العدل ليس هو المقياس الذى يقاس به رقيهم ، أو توزن به حظوظهم فى العلاوات وعطف الرؤساء ، وهى بهذا تشعر قلوب هؤلاء الموظفين شكّا فى الرؤساء ، ثم

(١) الكوكب فى ٨ - ٦ - ١٩٣٣ .

سخطا على الرؤساء ، ثم بغضا لهؤلاء الممتازين ، ثم حقدا على هؤلاء الممتازين ، ثم حسرة على ما أصابهم من سوء الحظ ، ثم استخفافا بالنظام الذى لا يقوم على العدل والإنصاف ، ولا يكافئ الناس بمقدار كفاياتهم وأعمالهم ، بل بمقدار قربهم أو بعدهم من الرؤساء الذين يقدرون على المكافأة .

وماذا تريد من صغار الموظفين ، بل من صغارهم وكبارهم أن يفعلوا ، وكيف تريد منهم على أن يطمئنوا أو يثقوا ، أو يخلصوا لأعمالهم ورؤسائهم ، وهم لا يرون الامتياز فى العلاوات والترقيات وحدها ، بل يرونه فى أشياء ما كانت تخطر لهم على بال !

هذان موظفان صغيران فى مكتب وزير الداخلية ، تضع الدولة تحت تصرف كل واحد منهما كما يقولون سيارة من سيارات الدولة ، ينفق عليها من أموال الدولة ، ويقودها رجل تأجره الدولة ، ويزينها جندي تأجره الدولة أيضا . فمن حق كبار الموظفين وصغارهم أن يتساءلوا : فيم هذا الامتياز ؟ ومن حق الناس جميعا أن يتساءلوا : فيم هذا الامتياز ؟ ومن الحق على البرلمان أن يسأل الوزير عن هذا الامتياز ، وأن يأخذه بإحداثه ويلومه عليه ، ويكلفه إلغاءه أو أن يستقيل .

وأنت إذا تركت الموظفين وما يخضعون له من هذه التصرفات التى تجرث بينهم نظام الطبقات ، رأيت نظام الطبقات هذا يحدث ويقوى فى الريف ، حيث الدعايات لسياسة الوزارة ، وحيث اكتساب الأنصار لها بألوان المحاباة وضروب التشجيع . خصوم الحكومة يضطهدون ، وتؤخذ عليهم سبل الحياة ، وأنصار الحكومة يقرّبون ويؤثرون بالخير ، وتوسع لهم أبواب الرزق ، وتفرّج عنهم مضايق الأزمة . ويشعر المصريون على اختلافهم بأنهم ليسوا سواء أمام عدل السلطان ، وبأن مصريتهم ليست فى المقياس الذى يجعل من حقهم أن يظفروا بهذا العدل ، ويستظلوا بظله ، وإنما هى مقياس أخرى تبيح النعمة لقوم ، وتفرض النقمة على قوم ، وتخلق بين أولئك وهؤلاء من ألوان العداوة والبغضاء ما لا يعلم عواقبه المنكرة إلا الله .

فإذا تركت الشعب فى الريف ونظرت إلى الشعب فى المدن فلن ترى حاله خيرا من حال أهل الريف . فالطبقة العاملة من شعب المدن تشقى بالحياة ،

وتلقى صنوفا من الضر ، مصدرها شدة الشركات عليها ، وإسرافها في هذه الشدة ، وعجز الحكومة أو تكلفها العجز عن أن تأخذ لها بالحق ، وترد أمورها إلى العدل والإنصاف .

مصريون يحرمون ويجوعون ، ويدوقون مرارة الشقاء إذا أصبحوا ، ويتجرعون هذه المرارة إذا أمسوا ، وأجانب يربحون ويدخرون ، ويرسلون أرباحهم إلى حيث يسعد بها قوم آخرون من وراء البحر .

ودع الشعب كله في المدن والريف ، ودع الموظفين أيضا ، وانظر إلى الطلاب أنفسهم في مدارسهم . ماذا يراد بهم ، وكيف تجد الحكومة في أن تنشئ بينهم نظام الطبقات ؟ وزير المعارف منذ أسابيع يعلن أن التعليم العالي ، والتعليم الثانوي يجب أن يضيقا على غير القادرين على دفع النفقات الدراسية ، ويقره مجلس النواب على هذا الإعلان ، فيتفق البرلمان والحكومة إذن على أن التعليم الثانوي والعالي يجب أن يكون من حق الأغنياء دون الفقراء . وما هي إلا أن يعجز بعض الطلاب — وهم كثيرون — عن أداء النفقات الدراسية فإذا هم يطردون من المدارس ويحال بينهم وبين الامتحان .

ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد ، فهؤلاء نظار المدارس العالية وعمداء الكليات في الجامعة ، نعم عمداء الكليات في الجامعة يجتمعون أمس عند وكيل المعارف ، نعم عند وكيل المعارف ليتفقوا على تضيق التعليم العالي ما وجدوا إلى هذا التضيق سبيلا . فكل طالب لم يظفر بخمسين في المائة من درجات النجاح في الشهادة الثانوية أغلقت في وجهه أبواب الجامعة وأبواب المدارس العالية . وكل طالب فصل من مدرسة عالية لا ينبغي أن يقبل في مدرسة أخرى . وكل طالب لم يظفر بأربعين في المائة من درجات النجاح في امتحان الانتقال من السنة الأولى في مدرسة التجارة ، فصل من هذه المدرسة ، وكل طالب لم يحمل الشهادة الثانوية العلمية فليس له أمل في مدرسة التجارة العليا هذه ، ومعنى ذلك أن عددا ضخما من حملة الشهادة الثانوية سيصد بإذن الله عن التعليم العالي ، وسيرد بإذن الله إلى الشوارع والقهوات .

على ذلك اتفق عمداء الكليات ونظار المدارس العليا برياسة الباشا الوكيل ،

ولم يبق إلا أن يقر الوزير هذا التعليم ليصبح أمرا لا منصرف عنه ، وإذن فسيؤلف في مصر جيش من العاطلين الساخطين ، وسيكون هذا الجيش ضخما جدا ، وسيكون مختلفا جدا ، سيكون فيه الفلاح الذى مزق ظهره السوط ، وحرق أحشاءه الجوع . وسيكون فيه العامل الذى سدت عليه أبواب العمل ، وأرهقته الشركات . وسيكون فيه الطالب الذى صد عن المدرسة لعجزه عن دفع نفقات الدرس وسيكون فيه الطالب الذى صد عن المدرسة لأنه لم يظفر بخمسين فى المائة من درجات النجاح . وسيكون فيه الشبان الذين تخرجوا من الكليات ومن المدارس العليا ، ثم لم يجدوا أعمالا ، إما لأن الأزمة تسد فى وجوههم أبواب العمل ، وإما لأن أبناء الأغنياء والأقوياء يحتكرون من دونهم مناصب الدولة والبلديات كهذا المنصب الذى أعطى لابن رئيس الوزراء فى بلدية الإسكندرية ، وهو عنه غنى ، ولعل غيره أن يكون أحق به منه ، ولعل غيره أن يكون أشد احتياجا منه إليه .

سيتألف هذا الجيش العاطل الساخط من هؤلاء الناس جميعا ، وسيكون له رديف ضخم أيضا ليس عاطلا ولكنه شديد السخط ، شديد الامتعاض يتألف من هؤلاء الموظفين الساخطين الذين يشكون كل يوم من سوء الحال ، وضيق ذات اليد ، وإيثار قلتهم على كثرتهم بالعلاوات والترقيات والامتيازات ، ويتألف من رجال التعليم الأولى الذين يعدون بالألوف ، والذين لا يجدون ما ينفقون ليعيشوا ، والذين يكاد لهم الكيد ، ويكال لهم الشتم ، ويدبر لهم المكروه ، ويراد أن يردوا عن هذا القليل الذى فى أيديهم ليظفر به قوم آخرون تريد السياسة أن تؤثرهم بالبر والمعروف فى هذه الأيام .

على هذا النحو تجد حكومتنا فى تأليف هذين الجيشين اللذين يملأ قلوبهما السخط ، وقد تهيئهما سوء الحال لمنكر من الأمر لا يستطيع دفعه عن مصر إلا الله وحده . أفلو أنشئت فى مصر جماعة من هذه الجماعات التى تهىء للثورة وتذبر الفتنة وتجذ فى تغيير النظام ، أتراها تستطيع أن تعمل لهذه الأغراض أكثر مما تعمل الحكومة ؟ أتراها تستطيع أن تهىء لتحقيق هذه الأغراض أكثر مما تهىء الحكومة ؟ أتراها تستطيع أن توفق إلى تحقيق هذه الأغراض أكثر مما توفق الحكومة ؟ كلا ، إن هذه الوزارة التى تزعم لنفسها أنها تقر النظام وتثبتته

لا تستطيع أن تعمل أكثر مما تعمل لتهديد هذا النظام وتعرضه لخطر الفساد والاضطراب ! إن الذين يعنيههم أمر هذا البلد ، والذين يحرصون على أن يسلك سبيله إلى الرقى فى دعة وهدوء ، وفى أمن واطمئنان ، وفى بُعد عن العنف خليقون أن يفكروا فى هذه الحال التى انتهت إليها مصر . فإن ترك مصر تسلك هذه الطريق التى تدفع إليها فى هذه الأيام دفعا يُخشى أن يضرم فيها نارا منكرا قد لا تحرقها وحدها بل توشك أن تحرق معها بلادا أخرى .

فليفكر من يعنيههم أمر مصر فى هذه الهوة التى تشرف عليها مصر ، ليفكر من يعنيههم أمر النظام فى هذا الخطر الذى يتعرض له النظام ، ليفكر من يعنيههم أمر السلام فى هذه العاصفة التى توشك أن تجتاح السلام .